المحاضرة الخامسة: أصول الفكر الاعتزالي

2- 1-2- الاصول الخمسة للمعتزلة (ج1):

2-1-2-1-التوحيد:

يعني التوحيد في اللغة الحكم بأنّ الشيء واحدٌ، والعلم بأنه واحد، وفي اصطلاح الفلاسفة يعني تجريد الذات الإلهية من كل ما يُتصور في الأَفهام ويتخيل في الأوهام والأذهان، وهو على حد تعبير "الجرجاني"(ت.471هـ): «معرفة الله بالربوبية والإقرار بالوحدانية ونفي الأنداد عنه جملة»[1]. والوحدة هي الانفراد، والواحد هو الشيء الذي لا جزء له، وإذا وصف الله بالواحد، فمعناه أنه لا تصح في حقّه التجزئة ولا التكثر[2].

أما اصطلاحا، فقد اختلف المسلمون في إيجاد تعريف جامع مانع لمصطلح التوحيد، فقد يقصد به جميع مباحث العقيدة، سواء ما تعلق منها بالله وصفاته، أو بالرسل والأنبياء، – عليهم الصلاة والسلام – أو الأمور الغيبية الواردة في الكتاب والسنة، وقد يقتصر مدلول التوحيد في البحث في ذات الله ﷻ وصفاته[3]، ولذلك يعرف التوحيد: «بأنه إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتا وأفعالاً وصفاتا»[4].

لكن التوحيد عند القاضي عبد الجبار يعني أنّ الله واحد لايشاركه أحد في الصفات وليس مثله موجود، وأنه الوحيد الجدير بهذه الصفات التي يستحق أن يوصف بها أو الصفات التي يجب أن لا يتصف بها وفي هذا يقول: «التوحيد في أصل اللغة عبارة عما به يصير الشيء واحدا، أما في اصطلاح المتكلمين، فهو العلم بأنّ الله تعالى واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفيا وإثباتا على الحد الذي يستحقه والإقرار به»[5].

لأنّ الإسلام يُعرف بدين التوحيد، والتوحيد أوَّلٌ وأوَّلِيٌ فيه، فهو أولٌ، لأنّ الاعتقاد أن «لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له » كانت الأولى في الشهادتين اللتين هما أول ركن من أركان الإسلام. و« لا شريك له » تعني وحدانيته في كل شيء، لذلك يغفر الله كل المعاصي عدا أن يُشرَك به. والتوحيد أوَّلِي لأنه أساس الأركان الأربعة الأخرى في الإسلام، إذْ دونه لا تقوم هذه الأسس. قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس : شهادة

---

[1] الجرجاني "علي بن محمد الشريف"، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان،ط1،1983، ص73.

[2] محمد جمال الدين القاسمي، دلائل التوحيد، تعليق عبد الرحمن العك، دار النفائس للطباعة، لبنان، ط1، 1991، ص ص47-48.

[3] المرجع نفسه، ص49.

[4] إبراهيم اللقاني، شرح جوهرة التوحيد، دار الكنب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص10.

[5] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص128.

أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»[6]. وليس المقصود بالتوحيد الاقرار بوحدانية الله فحسب، فهذا الامر مسلَّم به من جميع المسلمين، فلم نجد مسلما ينكر التوحيد بالله ﷻ، ولم نر فرقة واحدة من الفرق الإسلامية لا تقول به. وإنما المقصود بالتوحيد هنا التوحيد بين الذات الالهية وصفاتها[7].

إلاّ أنّ المعتزلة لُقِبوا بأصحاب التوحيد والعدل، بل أنّ القاضي عبد الجبار ألف موسوعة ذات عشرين جزءاً تحت عنوان "المغني في أبواب التوحيد والعدل "[8] وهذا يبين أنهم كانوا متميزين في تفسيره، متفلسفين في العقيدة بكيفية معمقة ودقيقة فيه.

2-1-2-2- العدل:

فإذا كان الباري ﷻ في أصل التوحيد منزها عن صفات المخلوقين، منفردا بذاتيته التي لا يشبهها أحد، فإنه تعالى نُزِّه في أصل العدل عن الظلم، وهو بذلك منفرد بخيريته فلا يصدر عنه الشر، فالعدل الإلهي يعتبره المعتزلة ذروة الفضائل التي تحكم الأفعال المتعدية إلى الغير، خاصة بين الله وعباده، ومن ثمة كان ﷻ لطيفا بعباده، لا يرضى لهم إلاّ الأصلح، مع العلم أن الإنسان وحسب رأي المعتزلة هو صاحب أفعاله. ومن خلال ما نزلت به الآيات من مظاهر عدالته تعالى الدالة على وحدانيته في أفعاله، حاول المعتزلة أن يبعدوا كل التصورات التي تتنافى والاعتقاد بعدله، مُطهرين بذلك فكرة الألوهية من كل المفاهيم التي تُسيءُ إلى وحدته وعدله. ولأجل ذلك، اختار المعتزلة من بين جميع صفات الفعل الإلهي صفة العدل، ليجعلوها الأصل الثاني من أصولهم. لا لشيء، إلاّ لأن هذه الصفة تدعم وحدانية الله تعالى وهو الأصل الأول، وهي ضرورية للأصول الثلاثة التالية، إذْ دون العدل، ينعدم معنى الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك يطلقون على أنفسهم اسم"الفرقة العدلية" أو "أهل التوحيد والعدل".

فالقول في اصطلاح المعتزلة أنّ الله عادل، يعني أنّ أفعاله كلها حسنة، وأنه لا يفعل القبيح ولا يختاره، ولا يُخِلُ بما هو واجب عليه. وهذا ما يؤكده القاضي عبد الجبار بقوله: « ونحن إذا وصفنا القديم تعالى بأنه عدل حكيم، فالمراد به أنّه لا يفعل القبيح ولا يختاره، ولا يُخِلُ بما هو واجب عليه، وأنّ أفعاله كلها حسنة. وقد

---

[6] حديث صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺبني الإسلام على خمس، رقم 8، ص 12.

[7] يحي هويدي، دراسات في علم الكلام والفلسفة الاسلامية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1979، ص108.

[8] "المغني في أبواب التوحيد والعدل"التي تقع في عشرين جزءا تعتبر زبدة الفكر الاعتزالي وخلاصته. ماتزال ستة أجزاء منها مفقودة، وهي الأجزاء: الأول، والثاني، والثالث، والعاشر، والثامن عشر، والتاسع عشر.

خالفنا في ذلك المجبرة، وأضافت إلى الله تعالى كل قبيح»[9]، ومنه فالعدل يتعلق بالفعل الإلهي من خلال صلته بعباده، إذْ كل ما يفعله بغيره عدل، ومن ثمة كان عدل الله مطلقا[10]. يقول "المسعودي " (896م، 957م) في تعريفه للعدل عند المعتزلة: « وأما القول بالعدل– وهو الأصل الثاني – فهو أنّ الله لا يحب الفساد، ولا يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم»[11]. وهذا يعني أنّ الله لم يخلق الشر مادام لا يحبه، ولم يخلق أفعال الإنسان بل خلق فيه القدرة التي بها يكون الإنسان صاحب أفعاله مسؤول عنها يجازى على اختياره لها.

[9] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1،1965، تح عبد الرحمن بوزيدة، ج2، ص3.

[10] القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل،ج6 التعديل والتجوير، تح محمود محمد قاسم، مطبعة دار الكتب، مصر، 1963، ص49.

[11] المسعودي "علي بن الحسين"، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، ج2، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، ط1، 1989، ج3، ص153.